باب التقريظ والانتقاد

ديوان امير — صدر في مطبعة المعارف في العاصمة ديوان الامير الشهير عبد القادر الحسني الجزائري مصدرًا برسمه ومطبوعًا طبعًا حسنًا على نفقة سعادة نجله الامير محمد باشا وقد نقلنا في باب الشعر مثالاً من شعر هذا الامير فنثني اطيب ثناء على سعادة نجله الذي اتحف الادب العربي بهذا الديوان وهو يطلب من جناب سليم افندي صوله في نظارة الاشغال العمومية ومن جميع مكاتب العاصمة وثمنه اربعة غروش صاغ

خلاصة الشكر — نشرت الجمعية الخيرية الارثوذكية السورية في الاسكندرية بيان اعمالها في سنة ١٨٩٨ فجاء ناطقًا باجتهاد حضرات رئيسها واعضائها الكرام في سبيل البر والاحسان وقد بلغت واردات الجمعية في هذه السنة ٤٣٥٦٣ غرشًا مصريًا وبلغت نفقاتها ٢٩٧٧٣ غرشًا فيكون الرصيد الباقي في صندوقها ١٣٧٨٩ غرشًا فنثني على همة رجالها وعلى الذين ساعدوهم على خدمة الفقراء بمالهم وعنايتهم جزاهم الله خيرًا

سوريا الفتاة — لا نريد ان نضرب صفحًا عن منشور وردنا من نيويورك عنوانه سوريا الفتاة واشار اليه كثير من جرائد القطر . واذا سئلنا ان نبدي رأينا في هذا المنشور نقول اننا قرأنا فيه غير ما قرأه فيه غيرنا من المطلعين عليه . فقد تمثل لنا عند وقوع نظرنا على هذا العنوان « سوريا الفتاة » ان جمعية تاسست من اخواننا السوريين في نيويورك للسعي في الباس سوريا الجميلة ثوبًا من السعادة جديدًا . تمثل لنا ان تلك الجمعية تجمع الاموال الطائلة من اعضائها وغير اعضائها وتقيم لها مجلس ادارة في نيويورك وآخر في بيروت وتبعث برسلين سوريين الى جميع بلدان سوريا لتأسيس مدارس صناعية وزراعية فيها اذ هي في غنى عن المدارس العلمية . رأينا انها تجمع كثيرين من الفلاحين والقرويين المهاجرين الى البلاد الاميركية فتبتاع لهم اراضي للزراعة في الجهات الاميركية وتسلمهم اياها يزرعونها ويتعلمون فيها اصول الزراعة العلمية والعملية ثم تأخذ جماعات منهم وتبعث بهم على نفقتها الى سهول البقاع واراضي فلسطين والاناضول لانشاء المحلات الزراعية في بلادهم فينفعون وطنهم و ينتفعون . رأينا انها تنتش بين جميع المهاجرين الى اميركا عن النساء والضعفاء فتأخذ بناصرهم لا بالاحسان اليهم بل بتمهيد سبل الارتزاق في وجوههم ورفع نفوسهم عن رذيلة البطالة والشحاذة التي وُصمت بها سوريا في بعض تلك الجهات . وبالجملة رأيناها مكرسة اوقاتها واموالها وقواها العقلية والادبية لجرف الاوساخ والاقذار الاجتماعية والادبية من حقل سوريا الكبيرة القائمة على شاطئ البحر المتوسط وسوريا الصغيرة القائمة وراء الاتلانتيكي . اذا كان هذا هو الغرض الشريف الذي ترمي اليه « سوريا الفتاة » فنحن معها ونجلتنا « الجامعة العثمانية » موقوفة على خدمتها رضي الناس ام غضبوا عليها . اما اذا كان لها غرض سياسي يلقي التهمة على السوريين والشبهة على امانتهم لدولتهم و يبذر سوء الظن بين الحاكم والمحكوم فانا نأسف شديد الاسف لان اول عمل عمومي عمله بعض من اخواننا السوريين في اميركا — لا كلهم — جاء عملاً ضارًا بدلاً من ان يكون مفيدًا

مهذبو الشبيبة — اشتد الجدال بين ناظر مدرسة في اب الشعرية في القاهرة وبين معلم يعلم في مدرسته فضرب الاول الثاني ضربة كسرت ذراعه فاخذ الضارب الى السجن والمضروب الى المستشفى . هكذا تكون آداب مهذبي الجيل الناشيء ومعلميه

اذا كان رب البيت بالطبل ضاربًا
فلا تلم الاولاد فيه على الرقص

غذاء المعد القوية

اريد رجلاً اذا كان في القوم وهو اميرهم كان كبعضهم واذا لم يكن اميرهم فكأنه اميرهم (الامام عمر)

نظر فيلسوف الى رجل حسن الوجه خبيث النفس فقال : بيت حسن وفيه ساكن نذل (الثعالبي)

كان العباس ابن علي المنصور يأخذ كأس الخمرة بيده ثم يقول لها : اما المال فتبلعين . واما المروّة فتخلعين . واما الدين فتفسدين (الشريشي)

سأل معاويةُ الاحنفَ بن قيس فقال : يا ابا بحر كيف الزمان . قال — الزمان انت يا امير المؤمنين . ان صلحتَ صلح الزمان وان فسدتَ فسد (الغزالي)

قال رجل لاقليدس الحكيم : لااستريح حتى اتلف روحك . فقال الحكيم . انا لا استريح حتى اخرج الحقد من قلبك (الغزالي)

قيل لمجنون : عدَّ لنا المجانين . قال : هذا يطول بي ولكن اعد العقلاء (المستعصي)

كل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر الا المصيبة فانها تبدو كبيرة ثم تصغر (لطائف الملوك)

الرجل الذي يتكلم طول النهار عجيبة من عجائب الدهر وكذلك المرأة التي تسكت طول النهار (برونه)

ربي احفظني من اصدقائي اما اعدائي فانا احفظ نفسي منهم (فولتير)

المروّة ان لاتعمل عملاً في السر تستحي منه في العلانية (الشريشي)

قيل للقمان ما اقبح وجهك . قال : اتعيب عليَّ هذا النقش ام على النقاش (الشريشي)

قيل لافلاطون ما هو الشيء الذي لا يحسن ان يقال وان كان حقاً . قال مدح الانسان نفسه (الابشيهي)

افتخر بعضهم عند بعض الحكماء بالآباء والاجداد وبزخارف المال المستفاد . فقال له ذلك الحكيم . ان كان في هذه فخر فينبغي ان يكون الفخر لها لا لك وان كان آباؤك كما ذكرت اشرافاً فالفخر لهم لا لك « الفخري »

اذا اكرمك الناس لمال او لسلطان فلا يعجبك ذلك فان الكرامة تزول بزوالها ولكن ليعجبك اذا اكرموك لدين او ادب (السيوطي)

قيل لبعض الملوك : لم لا تغلق الباب وتقعد عليه الحجاب . فقال : انما ينبغي ان احفظ انا رعيتي لا ان يحفظوني (الثعالبي)

غذاء المعد الضعيفة

بين ام وولدها : الى اين انت ذاهب يا بطرس — الى المدرسة — اليوم يوم احد وما عساك تفعل فيها — اوعز الينا المعلم بالحضور ليرينا كسوف الشمس — لا لا تذهب الا يقدر معلمك ان يريك هذا الكسوف غداً في اوقات الدرس

انف طويل : سأل رجل رجلاً ذا انف طويل لماذا شعر عارضيك خفيف . فاجاب ظريف كان واقفاً — لان الشعر لا ينبت في ظل انف كهذا

بين رجل وامرأته : اذا كان الطقس جيداً فاني سانزل الى السوق واشتري فسطاناً . فما هي علامة الطقس الجيد . فاجاب الرجل — علامته رعد وبرق وشتاء

بين ولدين : ابي احسن من امك — لا . ابي احسن — لا . ابي احسن — وبأي شيء امك احسن من ابي — امي تصنع شيئاً لا تقدر ان تصنعه امك — وما هو — هو انها تنزع اسنانها وتضعها كما تريد

بين ولد صغير وسيدة : ارني لسانك يا سيدتي — ولماذا يا عزيزي — لان امي تقول ان لسانك كلسان الانعى وانا احب ان ارى كيف يكون

آكل لحم البشر : استقدم ملك جزائر كانيبال مرسلاً اوروبياً مقيداً عنده وقال له — قد عزمنا على ذبحك واكلك فهل لك ما تقوله . فاجاب المرسل المسكين — وددت لو تسمح لي كلمة في ضرر اكل اللحم وفائدة اكل النبات

بين زوجين : اراد زوجان التنزه على قمة جبل فلما اخذا بالصعود تعبت المرأة فصارت تلهث وقالت لزوجها — يسرني جداً ان اجد الآن حماراً يحملني الى فوق . فاجاب الزوج النبيه — استندي عليَّ يا عزيزتي

بين معلم وتلامذته : عرفتم الآن فائدة صوف الغنم وان الثياب تنسج منها فقل لي اذاً يا بطرس من اي شيء صنعت ثيابك — من ثياب ابي العتيقة يا سيدي

افريقي في لندرا : اتى مرسل باحد متوحشي افريقيا الى لندرا واذ كان يوماً يريه رسوماً مجموعة وقع نظره على رسم يمثل الوفا من الشعب في حالة الاضطراب والهياج فسأل ما هذا الرسم . قال المرسل هذا رسم الشعب في الانتخاب في ادنبورج . فقال الافريقي — فلماذا لاترسلون ايضاً مرسليكم الى هؤلاء الناس ليمدنوهم

وبعد سكوت بضع ثوان رجعت في خلالها ماري الى افكارها وفدوكي الى نفسها حل الانقباض محل الانبساط على جبين الاثنتين فقالت ماري

ما ذا يكون طعامنا في هذا الصباح

قالت فدوكي لا اقدر ان آكل معك في هذا الصباح خلافاً للعادة اذ لا استطيع الابطاء فان الخواجه ينتظرني

قالت وكيف الخواجه معك

قالت على ما عهدته لا يهمه الا راحته مات خادموه او عاشوا . وقد بدأت اشعر بضعف قوتي وانحطاط عزمي . واظن ان امراً يحدث في داخلي .. وهو يرى مني سوء الحال كما ترين ومع ذلك لا يضع عن ظهري شيئاً من العمل ويغض الطرف عني كل ما رآني اشكو تعباً . حقاً لا اصعب من هذه المعيشة التي اعيشها

قالت ذلك وغالبت نفسها لاخفاء تاثرها الذي كاد يبدو بشكل دمعة في جفنها فسرى تأثرها الى امبلي فقالت منقبضة

لا اكتمك اني ارى صحتك في تأخر يافدوكي . وعملك شاق متعب فلماذا لا تسمعين كلامي . هذه المرة العاشرة التي اطلب منك فيها ان تستريحي ان لم يكن رفقاً بك فبولدتك

فاجابت فدوكي وهل تريدين ان اريح ولدتي بزيادة تعبي على حين انك تعلمين ان زيادة تعبي يزيد في تعبها . ام تخالين ان تركي العمل كما طلبت مني مرارا هو راحة لي . لا ياعزيزتي ماري ان تركي العمل والاستخدام في هذا المخزن الذي اخدم الآن فيه يزيد تعبي لاينقصه لانني اصبح حينئذ غير قادرة على كسب خبزي بعرق جبيني وانت تعلمين اني لا استطيع ان اقبل شيئاً حتى منك فان ذلك لا ينطبق على عزة نفسي

قالت ماري اذاً انت مصممة على قتل نفسك

قالت فدوكي ذكرت القتل الآن فاعلمي اذاً انني اذا مت مت وانا اقوم بواجباتي نحو نفسي ونحو امي . وهذا الموت خير لي من المعيشة بلا عمل اتناول من الناس ما اشتري به خبزي وخبز امي

فنظرت ماري في وجهها نظر العتاب قائلة — وهل انا من جملة « الناس » يافدوكي . انك تسوئيني بهذا الكلام . انا لا اقترح عليك امراً عظيماً وما هذا التهويل الذي تهولينه . المسألة في غاية البساطة . انظري . انت بلا اب ولا اخ ولا اخت ولا سند في هذه الدنيا سوى ام في الخمسين من العمر لا تحسن عملاً . وصحتك آخذة في التأخر يوماً بعد يوم فيلزمك الراحة وبالقلم العريض يلزمك « المعيشة الجيدة » والا ساء مصيرك . راتبك الذي تتناولينه من خدمتك في هذا المخزن الذي نحن بيننا وقدره ثلاثون ريالاً لا يكفي لسد كل نفقاتك . فهل من ذل النفس ان تقبلي مني الآن ما اقترحه عليك . اما يجب عليك ان تبقي على ما انت عليه فتقتلين نفسك بنفسك . ولا اقترح عليك امراً جللاً كما ذكرت . عندي مال مخصوص لي اقتصدته منذ خمس سنوات من فضلات نفقات البيت ونفقاتي الخصوصية فهذا المال تضعينه تحت امرك في احد المصارف وتاخذين منه كل شهر الثلاثين ريالاً التي تاخذينها الآن حتى اذا استراح جسمك ورجعت اليك قواك وصحتك رجعت الى عملك . ولا تذكري عزة النفس يافدوكي فاني بهذا لا احسن اليك ولكن اساعدك مساعدة وقتية ولو كنت مكانك وافترحت علي ذلك لما ابيت اباءك . وكل ما تاخذينه من ذلك المال عليك ان تردديه الي في المستقبل

فابتسمت هنا فدوكي ابتساماً صفراوياً وقالت — ما زادني هذا الكلام معرفة بحسن وداد ك ياعزيزتي ولكنك علمت جوابي على هذا الامر منذ اشهر فارجو ترك هذا الحديث

فلبثت الاثنتان مبهوتين ساكتين بضع ثوان ايضاً وعلى وجه ماري ملامح الاستياء من رفض صديقتها وفي فم فدوكي بسمة المستريح النفس الذي يعمل عملاً او يقول قولاً يشهد له ضميره بشرفه ونبله

وبعد بضع ثوان قالت ماري اذاً اتتناولين طعام الصباح معي جرياً على العادة

قالت فدوكي ولكن ابطأت فيجب ان انزل الى عملي

قالت لا بأس من ان تنتظري قليلاً ايضاً . ثم مدت يدها فقرعت جرساً فانفتح الباب بعد دقيقتين واطلت الخادمة امبلي فقالت لها ماري — اعدي لنا طعاماً

فابتسمت الخادمة وقالت — كأن فدوكي انتك بالقابلية والصحة فبارك الله في صباحها

وبعد بضع دقائق عادت الخادمة تحمل طبقاً عليه طعام الصباح فوضعته على مائدة امام ماري وفدوكي . فتقدمتا منه وجعلتا تاكلان . وكان الطعام بيضاً وزبدة وجبناً وحليباً

فقالت فدوكي انا لا استطيع ان اتناول غير اللبن

قالت ماري اخطرت في بالي امرًا اتذهبين معي الى بلادي

قالت فدوكي الى اين

قالت ماري الى حامات تلك القرية الجميلة القائمة على جبل الثورية بين بيروت وطراباس الشام . اذا ذهبتِ معي الى هناك ونهضنا في كل صباح وقصدنا الحرش القريب فتناولنا الحليب من ثدي المواشي وهي ترعى في الصباح يومئذٍ تحلين يافدوكي ما اطيب معيشة الخلاء . فهل تذهبين معي لترويح نفسكِ وتبديل الهواء فاني قد اشتقت الى بلادي وهذه فرصة تريحين بها نفسك وأُطفئ بها نار شوقي

فلم تجب فدوكي بغير الابتسام اذ ادركت ان هذا الاقتراح الثاني هو نفس الاقتراح الاول ولكن بصورة ثانية

وبعد الطعام همت فدوكي بالقيام فقالت لها ماري تسهرين الليلة عندنا

قالت فدوكي ولماذا هذا الطلب مع انكِ تحرضينني على النوم باكرًا من اجل صحتي

قالت لتسليتي فليلاً فان عندنا في هذا الليل دعوة فتتعشين عندنا وتسهرين معنا

قالت وما هي هذه الدعوة

قالت اتانا ضيف من سوريا فدعا ابي بعض اصحابنا السوريين واللبنانيين في نيويورك الى العشاء هذه الليلة . فلا تنسي ان تاتينا عند خروجكِ من المخزن

الفصل السابع

الشرارة الاولى

غابت شمس ذلك اليوم ومنزل الخواجه بولس على غاية الاستعداد لاستقبال المدعوين الى العشاء فيهِ . وهي عادة الفها الخواجه بولس فكان ياتيها كل اسبوعين او ثلاثة اسابيع تمكينًا لروابط الوداد بين النزالة السورية في نيويورك وابقاء للوفاق بينها

وكان يدعو الى مائدتهِ جميع العثمانيين على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم لانهُ كما كان يقول يريد ان تُهدم الحواجز القبيحة القائمة بين ابناء وطن واحد وان يزال سوء التفاهم بين قوم لا سعادة لهم اجتماعيًا وسياسيًا الاَّ بالاتحاد والاتفاق . وكان منزله حين اجتماع المدعوين فيهِ معرضًا لجميع الاحوال والافكار وجميعهم يُعاملون معاملة واحدة من الكبير الى الصغير

قلنا ان المنزل كان مستعدًا لاستقبال ضيوفهِ ولكن ماري لم تكن مستعدة لانها كانت لا تزال ملازمة فراشها . وقد بذل ابوها قصارى الجهد في اقناعها بالنهوض من فراشها لاستقبال الزائرين فاعتذرت واصرَّت على النوم باكرًا فخرج ابوها من غرفتها غير راضٍ ونادى الخادمة اميلي وطلب منها ان تبعث في طلب السيدة فدوكي لعلها تقنعها

فقالت اميلي انها ستاتي بعد قليل لان ماري أُلحت عليها بالحضور هذهِ الليلة

قال وهل أُلحت عليها بالحضور لتسجنها في غرفتها لاني اسمعها تقول انها لا تريد النهوض الليلة ولا اعلم ماذا اصابها اليوم فانها امس كانت سليمة الفكر والبدن

قال هذا ودخل الى القاعة حيث كان ينتظرهُ اميل

ولم يكن اميل قد نظر ماري النهار كله فساءهُ ذلك جدًا لانهُ كان يتوقع استقبالاً احسن من هذا الاستقبال ولاسيما وان لهُ عليها فضل التعليم القديم . فغض بريقهِ وسكت الى الظهر ولما لم يرها على مائدة الطعام سأل اباها عن اسباب غيابها متمنيًا ان لا يكون ذلك لامر صحي فانبأهُ الخواجه بولس بانحراف صحتها بعض الشيء فقال في نفسهِ — لو كنت مكانها وكنت على شفا الموت لجررت نفسي جرًا وقابلتها غداة وصولها اليَّ ونزولها في بيتي . فكر في ذلك وعض شفتيهِ غيظًا وحنقًا

وبدأ المدعوون بالتوافد والخواجه بولس يستقبلهم بلطفه المعتاد . الاَّ ان كل داخل منهم كان اول ما يقع نظرهُ على زاوية في صدر القاعة فيراها مظلمة سوداء بعد ان كان يتوقع ان يراها طبقًا للعادة لامعة بيضاء . ذلك ان كرسي ماري كانت تقام في هذه الزاوية فتجلس عليها طول الوقت للزائرين مرتدية بثوبها الناصع البياض فكان ينبعث منهُ ومن وجهها الذي يحاكيه بياضًا نورٌ ينتشر على الحاضرين فيجعل كل شيء في القاعة ابيض ساطعًا . كأنها كانت شمس القاعة وبغيابها غابت تلك الشمس فاصبح كل شيء ظلامًا

وكان الخواجه بولس يعرّف اميل بالمدعوين واحدًا واحدًا حتى صارت الساعة الثامنة فارتفع في فناء المنزل ضجة صحبها ضحك وقهقهة شديدة

فقال احد الحاضرين قد قدم الخواجه حنا

فعند ذلك دخل الى القاعة رجل ضخم الجثة قصير القامة عريض العضل ذو وجه اقرب الى السواد منهُ الى البياض وعينين كبيرتين قويتين يُقرأ فيهما آية القسوة والاثرة . وراءه امرأة نحيفة الجسم بقدر ضخم جسم الرجل طويلة بقدر قصره ولكن عينيها ليستا اقل قوة ولا اقل دلالة على نفس شرسة تسكن في جسمها . وكان وراء هذين الاثنين شاب لا نعرفهُ اذ قد عرفناهُ وهو الخواجه بطرس رفيق اميل